الرحالة الفرنسيون في القرن ١٩م ودورهم في تحريف التاريخ الموريتاني *

محمدو بن محمذن
قسم التاريخ/ جامعة انواكشوط

إن الهدف من هذا العرض هو إبراز بعض الاخطاء التى ارتكبها الرحالة الفرنسيون الذين زاروا البلاد الموريتانية خلال القرن ١٩ وسجلوا مجموعة من المعطيات عن أوضاع البلاد وحياة سكانها، نشر معظمها فى شكل كتب رحلات (Relation de voyage) وتحت عناوين تختلف باختلاف أصحابها وأهداف رحلاتهم والمناطق التى زاروها.

وتندرج محاولة إبراز أخطاء هؤلاء الرحالة الفرنسيين فى نطاق سعينا الهادف إلى غربلة مختلف مصادر تاريخ بلادنا لتصحيح ما علق به من أخطاء إرادية كانت أم غير إرادية.

وسنحاول فى هذا العرض تقديم الرحلات الفرنسية أثناء القرن ١٩ من خلال بعض النماذج ونتطرق بعد ذلك إلى أهم أسباب التحريف والتشويه الواردة فى تلك الرحلات ثم نعطى فى الاخير أمثلة من هذا التحريف.

١ ـ تقديم كتب الرحلات:

إن الكتب التى نقصدها هنا هي تلك التى زار أصحابها البلاد الموريتانية خلال القرن ١٩ وهي مصدر مهم من مصادر التاريخ الموريتاني الحديث والمعاصر وذلك رغم نواقصها التى سنتحدث عنها فى مكان آخر من هذا البحث. وتتجلى أهميتها فى تنوع وكثرة المعلومات التى زودتنا بها عن مختلف جوانب الحياة الموريتانية وخاصة إذا تعلق الامر بالمعطيات الاقتصادية والطبيعية التى لاتوجد تقريبا خارج الكتابات الاوروبية، «لكون الكتاب المحليين كانوا يعتبرون كثيرا من مظاهر الحياة عاديا وغير جدير بالاهتمام» [١]. ونشير بخصوص الكتابات الاوروبية عن التاريخ الافريقي عامة إلى ماقاله أحمد إبراهيم دياب: «لقد ترك الرحالة والمبشرون الاوروبيون كثيرا من الوثائق والسجلات والمدونات والكتب والتقارير التى تحكى تطورات الانسان والحيوان فى الفترة من القرن ١٦ إلى الـ ٢٠ (. . .) ولكن أهم من ذلك بكثير أن معظمها إن لم تكن كلها يشوبها الغرض والتحيز ضد إفريقيا والافارقة. ولذلك على الباحث أن يستغلها بتحفظ (. . .) **ويجب أن نتذكر انه لاغنى للمؤرخ عن تلك المصادر لأنها فى معظم الاحيان تكون المصدر الوحيد، خاصة فى فترة الاستعمار**» [٢] (خط التشديد منا).

وتبدو أهمية الرحلات بالنسبة للتاريخ الموريتاني فى كونها ومنذ النصف الثاني من القرن ١٩ بدأت تغطى مختلف مناطق البلاد وذلك ضمن القفزة التى عرفتها الرحلات الفرنسية كما وكيفا، فى نطاق مساعى فرنسا المتزايدة بشأن تغيير طرق تعاملها فى المنطقة مما تطلب الاسراع فى جمع المعلومات عن البلاد الموريتانية تمهيدا لاحتلالها كحلقة وصل بين المستعمرات الفرنسية فى المغرب العربي وتلك الموجودة فى إفريقيا جنوب الصحراء.

الثاني لتنسجم مع السياسة الاستعمارية الجديدة حيث أصبح الرحالة خاصة في الربع الاخير من ذلك القرن يبحثون عن موطىء قدم لفرنسا في البلاد الموريتانية للاستحواذ عليها ولابعاد الخطرين الاسباني والانجليزي عن المنطقة.

وقد عرفت البلاد الموريتانية توافد العديد من الرحالة الفرنسيين في الفترة الممتدة من سنة ١٨١٧ (تاريخ استعادة فرنسا نهائيا للسنغال من الانجليز) إلى سنة ١٩٠٣ (تاريخ بداية الاستعمار الفرنسي المباشر للبلاد الموريتانية). ومن أهم هذه الرحلات في الربع الاول من القرن الـ١٩ إثنتان:

أما الاولى فهي رحلة / مولينه/ (Mollien) وهو أحد الناجين من تحطم السفينة الفرنسية (La Méduse) في السواحل الموريتانية يوم الـ٢ يوليو ١٨١٦. وقد زار هذا الرحالة منطقة حوض نهر السنغال ونشرت رحلته التي خصص فصلا من جزئها الاول للحديث عن البلاد الموريتانية تحت عنوان:

Molien Gaspard-Théodore, **Voyage dans l'intérieur de l'Afrique et aux sources du Sénégal et de la Gambie,** Imprimerie Madame Courcier, Paris, 1820, 2 Vol.

وأما الثانية فهي رحلة/ رنى كاييه/ التي سنعود إليها بعد قليل. وابتداء من منتصف القرن الـ١٩ تكاثرت الرحلات إلى درجة إرسال ثلاثة رحالات في نفس الوقت تقريبا هم:

- الضابط / ماج/ (Mage)، الذي أرسل إلى منطقة تكانت سنة ١٨٥٩ ونشرت رحلته تحت عنوان:

Mage (E) «Voyage au Tangant 1859 (Afrique Centrale)», **Revue Algérienne et Coloniale,** Juillet 1860, P.P. 1-28.

- الضابط / فينصانه/ (Vincent) الذي أرسل إلى منطقة آدرار عن طريق الترارزة سنة ١٨٦٠ ونشرت رحلته تحت عنوان:

Vincent (H), «Voyage d'exploration dans l'Adrar (Sahara Occidental)» **Revue Algérienne et Coloniale,** 3e Série, n. 4, Octobre 1860, P.P. 445-494

- الضابط / بورل/ (Bourrel) الذي أرسل إلى منطقة البراكنة سنة ١٨٦٠. ولنا عودة إلى رحلته بعد حين.

وفي نهاية القرن الـ١٩ عرفت الرحلات الفرنسية إلى البلاد الموريتانية طفرة لم يسبق لها مثيل نذكر منها على سبيل المثال:

- رحلة / بول سوليه/ (P. Soleillet) سنة ١٨٨٠
- رحلتي / كاميل دول/ (Camille Douls) سنتي ١٨٨٧ - ١٨٨٨
- رحلة / سولي/ (Ch. Soller) سنة ١٨٨٧
- رحلات / افابير/ (Léon Fabert) بين سنتي ١٨٩١ - ١٨٩٤
- رحلة / غاستون دونيه/ (Gaston Donnet) سنتي ١٨٩٣ - ١٨٩٤. ولنا عودة إلى هذه الرحلة في مكان آخر من هذا المقال.
- رحلة / بلانشي/ (Blanchet) المشتركة سنة ١٩٠٠ - ١٩٠١ قبيل احتلال البلاد.

وقد اخترنا ثلاث عينات من هذه الرحلات سنحاول التركيز عليها خلال هذا المقال هي:

- رحلة/ رنى كاييه/ سنة ١٨٢٤
- رحلة/ بورل/ سنة ١٨٦٠
- رحلة/ غاستون دونيه/ سنتي ١٨٩٣ - ١٨٩٤

أولهما يرجع إلى نوعية الرحالة نفسه حيث اخترنا/ رنى كايبه/ (Rene Caillie) باعتباره رحاله عاديا (مغامر) و/ بورل/ (Bourrel) بوصفه ضابطا عسكريا و/ غاستون دونيه/ (G. Donnet) لكونه موظفا إداريا.

أما العامل الثانى فهو عامل زمني حيث ارتأينا توزيع العينات المختارة على امتداد القرن الـ١٩. فكانت رحلة / رنى كايبه/ فى الربع الاول من ذلك القرن ورحلة / بورل/ فى منتصفه ورحلة / غاستون دونيه/ فى نهايته وذلك رغبة منا فى تغطية القرن كله.

أما / رنى كايبه/ فرحالة عادي (مغامر) زار البلاد الموريتانية سنة ١٨٢٤ وقضى بضعة أشهر فى منطقة البراكنة مدعيا اعتناق الاسلام وكانت صلاته بالزوايا فى المنطقة أكثر حيث أخذ يتعلم العربية وكل ذلك لخدمة طموح طالما راوده بالوصول إلى مدينة تنبكتو.

ونشرت رحلة رنى كايبه، التى خصص حوالي ٢٠٠ صفحة من جزئها الاول لحياة سكان منطقة البراكنة الموريتانية، تحت عنوان:

René Caillié, **Voyage à Tombouctou**
François Maspéro, Paris, 1979.

وأما / بورل/ (Bourrel) فهو ضابط عسكري وقد زار البلاد الموريتانية سنة ١٨٦٠ وقضى فيها ثلاثة أشهر متجولا مع مخيم الامير البركني سيدى علي الثانى (ت ١٨٩٣)، فكانت علاقته أكثر مع حسان، وقد نشرت رحلته تحت عنوان:

Bourrel (Enseigne de Vaisseau), «Voyage dans le pays des Maures Brakna (Rive droite du Sénégal, Juin - Octobre 1860)», **Revue Maritime et Coloniale,** Tome Second, Septembre 1861, P.P. 511-545 et Octobre 1861, P.P. 18-77

وهذه الرحلة تشتمل على ثلاث وتسعين صفحة من الحجم الصغير، وهي مخصصة كلها للحديث عن البلاد الموريتانية.

أما بخصوص / غاستون دونيه/ فهو مكلف بمهمة فى وزارة المستعمرات وقد زار البلاد الموريتانية خلال سنتي ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤ عابرا مناطق الترارزة وإنشيري وآدرار وتيرس والتقى بمعظم القبائل التى تقطن تلك المناطق. ونشرت رحلته، التى تضم ٨٥ صفحة من الحجم المتوسط والمتعلقة كلها بالبلاد الموريتانية، تحت عنوان:

Gaston Donnet, **Une mission au Sahara Occidental,** du Sénégal au Tiris, Augustin Challamel, Paris, 1896.

وإذا كانت هذه الرحلات قد اشتملت على العديد من المعطيات المهمة بالنسبة للتاريخ الموريتاني فإنها لاتخلو كذلك من بعض الاخطاء والنواقص مما يجعلها تحرف وتشوه هذا التاريخ فى بعض الاحيان. فماهي أسباب ذلك التحريف؟

٢ ـ أسباب تشويه الرحالة الفرنسيين للتاريخ الموريتاني:

لقد تضافرت مجموعة من العوامل المختلفة لتسبب هذا التشويه أو لتساعد عليه منها ما يخص الرحالة الفرنسيين أنفسهم ومنها ما يتعلق بالمجتمع الموريتاني. فـ«الرحالة الفرنسيون ـ كما يقول جانه كلود بلاشير - (Jean Claude Blachère) ـ جاؤوا إلى موريتانيا بأفكار تغمرها الاحكام المسبقة» [٣]. ومن هذا المنطلق فإنهم لم يتمكنوا من تمثل المجتمع الموريتاني تمثلا صحيحا، إذ كثيرا ما يحاولون قراءة أحوال هذا المجتمع انطلاقا من أحوال فرنسا آنذاك عن طريق عمليات إسقاطية بعيدة عن الواقع والموضوعية مما جرهم أحيانا إلى تشويه التاريخ الموريتاني. وفى هذا السياق نجد الرحالة ليوبولد بانيه (Léopold Panet) يبدى خيبة أمله عندما شاهد مدينة شنقيط الموريتانية سنة ١٨٥٠ متحاملا تحاملا كليا عليها «فهى لاتعدو كونها مجموعة من الدور المبنية دون الخضوع لأى فن معمارى ولانظام (. . .) فنجد فيها الاشكال المربعة

أصبحت خرابا تلحق الاذى بمن يمر قربها لأن أبسط حركة يقوم بها طفل أو شاة وحتى فأر بجانبها قد تؤدى إلى تساقط الحجارة من فوق سطوح تلك المنازل. . . » [٤].

إننا لن نضيف بخصوص هذا التحامل غير الموضوعي شيئا على ما وصفه به / جانه كلود بلاشير/ حين قال معلقا على وصف / بانيه/ لمدينة شنقيط: «ان إصدار مثل هذه الاحكام يعتبر تجاهلا تاما لمبادىء هندسة معمارية صحراوية عرفت بذكاء كيف تتأقلم مع الظروف المناخية المتقلبة». [٥].

إن هذا الرحالة (بانيه ليوبولد) لم ينظر إلى مدينة شنقيط بوصفها مدينة صحراوية لها خصوصياتها وإنما نظرها من خلال نظرته لباريس أو أي مدينة فرنسية أخرى ولهذا فقد خيبت شنقيط آماله كما قال. غير انه أعجب إعجابا كبيرا ـ وهو يعترف بذلك ـ بحقول مدينة شنقيط (واحات النخيل وحقول الشعير والقمح. . .) أعجب بها لأنها ذكرته بالحقول الخضراء فى فرنسا [٦]. إنها الاحكام المسبقة وعمليات الاسقاط الواضحة.

ويعلق / جان كلود بلاشير/ على موقف الرحالة الفرنسيين هذا قائلا: «لقد وجدتُ صورة مشوهة للحقيقة وذلك من خلال تقارير ورحلات الكتاب الفرنسيين الذين اهتموا بالبلاد الموريتانية أمثال / رنى كايبه/ و/ ليوبولد بانيه/ وغيرهما. . . » [٧].

وهؤلاء الرحالة هم فرنسيون مسيحيون ـ رغم إدعاء بعضهم اعتناق الاسلام ـ جاؤوا إلى البلاد الموريتانية لخدمة أغراض فرنسية تجارية أو استعمارية. فرحلاتهم ذات أبعاد سياسية وإيديولوجية فى غالب الاحيان.

وبالاضافة إلى ذلك فإن قساوة مناخ موريتانيا وصعوبة التنقل والترحال فيها وانتشار الامراض وظروف الحياة القاسية ومحافظة سكان الصحراء بطبيعتهم، كلها عوامل قد لاتساعد الرحالة الفرنسيين على أخذ انطباعات موضوعية عن هذا المجتمع مما يقود أيضا إلى التشويه.

وبالمقابل فإن المجتمع الموريتاني مجتمع مسلم محافظ يكره الاوربيين ويعتبرهم كفرة ويمثلون خطرا على الدين والبلاد والعباد. فأي أوربي يود المرور بهذه الارض عليه أن يكون مسلما ولو ظاهريا فقط لأن اعتناق الاسلام جواز سفر لابد منه فى هذه البلاد المسلمة. ذلك ما فهمه / ليوبولد بانيه/ (عبد الله) وما أرغم الرحالة / كاميل دول/ على «فهمه» بعد أن أوشك سكان الصحراء أن يقتلوه بالضرب والتعذيب ليجد خلاصه من هلاك محتوم فى ترديد آيات قرآنية والاعلان انه مسلم يدعى عبد القادر [٨]. فالاختلاف فى الدين اذن كان من أهم العوامل التى ساعدت على التشويه والتحريف.

وهنالك أيضا إلى جانب هذا الحاجز الديني حاجز لغوي لعب هو الاخر دوره. فهؤلاء الرحالة الفرنسيون لايعرفون لغة المجتمع الموريتاني. وفى أكثرية الاحوال فإن مرافقيهم ومترجميهم زنوج سنغاليون لايتقنون العربية هم بدورهم مما يجعل التفاهم صعبا فى بعض الاحيان ويشجع التحريف والتشويه حتى غير المقصودين.

وهكذا فإن الحواجز الدينية واللغوية والاجتماعية كلها عوامل ساعدت على تحريف وتشويه بعض الحقائق الموريتانية من طرف الرحالة الفرنسيين.

وقد يكون التحريف مقصودا بهدف خدمة أغراض إيديولوجية «لحاجة فى نفس يعقوب». كما قد يكون غير إرادي متأتيا من جهل اللغة وعدم إدراك الامور على حقيقتها كالاخطاء التى ارتكبها / رنى كايبه/ ضمن حديثه عن التركة [٩]. فنحن لانتوقع من هذا الرحالة الفرنسي المسيحي الذى يجهل الاسلام والعربية ـ وربما يعاديهما ـ أن يتقن تفاصيل علم المواريث الاسلامي المعقد فى فترة زمنية وجيزة.

تلكم اذن هى أهم عوامل تحريف الرحالة الفرنسيين للتاريخ الموريتاني فماهى مظاهر هذا التحريف؟

ستتناول مظاهر هذا التحريف من خلال ثلاثة محاور رئيسية هي:

أ ـ التشويه فى المجال الديني

ب ـ التشويه فى المجال الاجتماعي

ج ـ التشويه فى المجال التاريخي.

أ ـ التشويه المتعلق بالمسائل الدينية:

شمل هذا التحريف مجالات عديدة يتعلق بعضها بعقائد البيظان والبعض الاخر بممارساتهم الدينية.

ففى نطاق حديثه عن الطفولة والمراهقة يقول / بورل/ «فى حدود السنة ١٥ من العمر يصبح المراهق مكلفا ويتولى مرابط تفقيهه فى شؤون الدين ويصبح [المراهق] مطالبا بامتثال أوامر الدين وإلا أنزلت به أقسى العقوبات. وهذه الاوامر هي: إقامة الصلاة، صوم رمضان، إيتاء الزكاة، حج البيت الحرام والجهاد فى سبيل الله عند الضرورة. إلا أن النساء مطالبات بامتثال الاوامر الثلاثة الاولى» [١٠].

يبدو أن / بورل/ يتحدث هنا عن أركان الاسلام الخمسة وقد حذف أولها وهو الشهادتان وأضاف إليها الجهاد. وقد ارتكب خطأ بخصوص سن البلوغ عن المسلمين وهي ١٨ وليست الـ١٥ كما قال. أما التفقه فى شؤون الدين فيبدأ أحيانا كثيرة قبل سن البلوغ وليس معها حسب ما يزعم / بورل/. ومن تلك الاخطاء القول بأن «مطالبة المراهق بإقامة الصلاة تبدأ فى سن البلوغ» فتلك المطالبة تبدأ منذ وقت مبكر حيث يؤمر الولد بالصلاة وهو فى السابعة من عمره ويضرب عليها حينما يبلغ سنته العاشرة. فقاعدة «أمر صبي بها لسبع وضرب لعشر» [١١] معمول بها عند الموريتانيين حتى لدى العامة.

أما أركان الاسلام فهي لدى المرأة كما لدى الرجل دون إعفاء أي منهما من أي ركن من تلك الاركان.

ويذكر / بورل/ فى مكان آخر عند حديثه عن الصلوات «ان صلاة المغرب هي أكثر الصلوات مهابة» [١٢]. ونحن لانعرف الاساس الذى اعتمد عليه فى هذا الحكم إلا أن الصلوات عند المسلمين كلها مهيبة يجب القيام بها فى وقتها المحدد.

واتهم / بورل/ الزوايا بتفضيل مصالحهم الخاصة على الدين فقال: «... وإن كانوا [الزوايا] أكثر ثقافة من حسان، إلا أنهم أقل منهم ذكاء وأكثر تزمتا ورفضا لحضارتنا [الفرنسية]، ولكن المصلحة عندهم تضع الدين فى المكانة الثانوية...» [١٣].

إن هذا الحكم خاطىء هو الاخر. فالزوايا كانوا متشبثين بدينهم ويكفى للبرهنة على ذلك التذكير بدورهم فى حركة المرابطين التى نشرت الاسلام المجاهد فى ربوع المنطقة خلال القرن الـ١١ م وحركة الامام ناصر الدين (ت سنة ١٦٧٣) الزاوية التى قادت حرب «شربيه» [١٤] فى الجنوب الغربي الموريتاني وحوض نهر السنغال خلال النصف الثاني من القرن الـ١٧م والادوار التى لعبوها فى مواجهة التغلغل الفرنسي فى البلاد الموريتانية.

أما عند / رنى تايبه/ فنجد النظر إلى الصلاة وكأنها مجرد رياضة وإلى تلاوة القرآن بوصفها تسلية حيث يقول: «ان زوايا البراكنة كسالى مثل حسان. ولايقومون [الزوايا] بأية نشاطات ما عدا الذهاب إلى المسجد للصلاة، ووسيلة تسليتهم الوحيدة هي تلاوة القرآن، وفى بعض الاحيان يتبادلون أطراف الحديث وهم مضجعون فوق الارض وينامون وهم يناقشون شؤون الدين والسياسة» [١٥].

من جوانبهما الروحية السامية.

ويناقض / رني كايبه/ نفسه حين يعتبر «قراءة القرآن هي وسيلة تسليتهم الوحيدة»، إذ أنه يذكر في مكان آخر من رحلته العديد من وسائل التسلية مثل لعب الاكعب والسباق.. الخ [١٦].

وفي حديثه عن الصوم يقول / رني كايبه/ «ان البيظان يسافرون عمدا في رمضان لتبرير الافطار». [١٧].

ويضيف: «ان النساء يصمدن صائمات حتى منتصف النهار». [١٨] معمما بذلك على البيظان التلاعب بالصوم. ونحن نعتقد ان هذا التعميم خاطيء وليس له ما يبرره إطلاقا.

وضمن حديثه عن مراسيم دفن الجنازة عند البيظان، يزعم / رني كايبه/ «ان الميت يحلق باستثناء لحيته ويغسل ويكفن ويترك أربعة أيام تحت خيمته قبل أن يدفن». [١٩].

إن هذه المسألة، هي الاخرى، خاطئة وغير معقولة بتاتا، فمراسيم الدفن عند البيظان هي نفسها مراسيم الدفن كما تحددها مسطرة الفقه المالكي.

ومن جانبه ساهم / غاستون دونيه/ في هذا التحريف فقال: «ان تعدد الزوجات غير شائع لدى البيظان، لكن بعضهم قد يتخذ خمس أو ست زوجات شرعيات مثل الشيخ سعد بوه» [٢٠]. وعندما أراد هذا الرحالة [دونيه] أن يشرح حكمه هذا في الهامش زاد الطين بلة حيث قال: «ان الرسول ﷺ لم يشأ أن يحدد عدد الزوجات التي يسمح للمسلم أن يتزوجها. فالمسلم يمكنه أن يتزوج عدد مايستطيع إنفاقه من النساء». ولايخفى ما في هذا الشرح من تجاوز لمعطيات الشريعة الاسلامية. فالقرآن واضح في هذا المجال: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾... [٢١].

وهكذا نقرأ في كتب الرحلات صورة مشوهة للممارسات والعقائد الدينية في مجتمع البيظان فكيف تبدو المعطيات الاجتماعية في هذه الكتب؟

ب ـ التشويه المتعلق ببعض طبائع البيظان:

سنتناول في هذا الجزء آراء الرحالة الفرنسيين بخصوص البنية الاجتماعية والنفسية للبيظان. تلك الاراء التي لخصها / رني كايبه/ في وصفه لحسان حين قال: «إنهم كسالى وكذابون ولصوص وجشعون وحساد وخرافيون، ويجمعون في الاخير، كل الاوصاف الرذيلة» [٢٢].

ولم ينج الزوايا ـ هم الاخرون ـ من هذه الاوصاف التي سنتحدث الان عن ابرزها:

ـ الكسل:

تحدث / رني كايبه/ عن كسل البيظان قائلا: «ان زوايا البراكنة كسالى مثل حسان...» [٢٣]. وحذا / غاستون دونيه/ حذوه متحاملا تحاملا أكثر قساوة فقال: «ان بيظانيا محسنا ومخلصا ومعترفا بالجميل وصريحا قد يصادف يوما ما، لكن بيظانيا محبا للعمل لن يوجد أبدا... فالكسل عند البيظان داء عضال، وهذا الداء العضال منتشر بحدة من حدود المغرب الاقصى الجنوبية إلى ضفاف نهر السنغال. فالحساني لايبذل ولن يبذل أي جهد من المهد إلى اللحد، باستثناء المسائل المرتبطة بطبعه كالنهب والغزو والانتقام ومعاقبة المتمردين (...). أما المرابط [الزاوي] فإنه يرغب أحيانا في أن يتذكر من

إن هذه الاحكام القاسيه بعيدة عن الحقيقه والواقع ، فهاهو الرحاله الفرنسي / فينصانه/ ، الذى زار البلاد الموريتانيه سنة ١٨٦٠م وقضى فيها حوالي ثلاثة أشهر متجولا فى مناطق التارزة وآدرار وتيرس وإنشيرى، ينفى الكسل عن البيظان بعد نعتهم بشتى النعوت السيئة قائلا: «. . . ومع ذلك يجب أن نعترف للبيظان بنشاط لايعرف الكلل. فهم فى الاساس رحالات وتجار متنقلون». [٢٥].

أما / بورل/ فيظهر إعجابه بطريقة عيش الزوايا متحدثا عن دورهم الاقتصادي فهم يسيطرون على جني الصمغ العربي وتجارته وينمون المواشي الكثيرة ويزرعون الحبوب ويجنون من كل تلك الانشطة المختلفة رفاهية بل وترفا لم يعرفهما حسان. [٢٦].

وبخصوص كسل حسان الذى أشير إليه فإن القول بأنهم يمارسون النهب والغزو ومعاقبة المتمردين. . . . يمثل فى حد ذاته اعترافا غير مقصود بنوع من النشاط يمليه تحضير الوسائل الضرورية لذلك العمل، لكن القول بأن حسان لايمارسون تقريبا الانشطة الاقتصادية المنتجة من رعي وزراعة وتجارة لأنهم يأنفون عن ممارستها معتبرينها مخلة بكرامتهم قول أقرب إلى الصحة.

ويعمم / رنى كايبه/ في حديثه عن النساء تفشي الكسل فى صفوفهن: «ان الكسل منتشر فى صفوف النساء بشكل أعمق منه بين الرجال. فالنساء لايجلسن حتى لتناول طعامهن بل يستندن على مرافقهن لاستلام إناء اللبن من العبد ويعدنه إليه بعد شرب اللبن وهن مضجعات». [٢٧]

والخطأ الذى ارتكبه / رنى كايبه/ هنا هو التعميم، فنحن نعرف ان نساء بعض الفئات الاجتماعية الموريتانية يقمن بالعديد من الانشطة المختلفة. وفى هذا المجال فإننا نجد الرحالة الفرنسي / ليوبولد بانيه/ الذى اجتاز الصحراء الموريتانية سنة ١٨٥٠م يتحدث عن عمل المرأة إلى جنب الرجل فى حقول مدينة شنقيط. [٢٨].

أما / بورل/ فيعدد أنشطة المرأة: فهي تقوم بصنع الخيام وصيانتها وتخيط الثياب وتدبغ الجلود وتنجز بعض الصناعات الجلدية الحسنة، بالاضافة إلى العناية بنظافة وتجميل بناتها [٢٩].

ويظهر / غاستون دونيه/ عدم فهمه لطبيعة حياة البيظان عندما يقول: «ان قبائل التارزة والبراكنة وإدوعيش وأولاد بسباع وأولاد دليم يعيشون حياة شديدة الرتابة. فلاهم لديهم سوى التنقل بخيامهم من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب محاولين بذل أدنى جهد ممكن» [٣٠].

إن طبيعة المنطقة وأنشطة سكانها تفرض عليهم ذلك التنقل المستمر بحثا عن الماء والكلأ وعن الظروف المناخية الاكثر ملاءمة لهم ولمواشيهم. فحركة البيظان الدائبة هذه، فى الصحراء القاسية المناخ والمترامية الاطراف، برهان على النشاط لا على الكسل.

إن إطلاق وتعميم الكسل على المجتمع الموريتاني لايخلو - كما رأينا - من مبالغة وعدم موضوعية. فهذا المجتمع كان يعيش اقتصاد الاكتفاء الذاتي معتمدا على ثروته الحيوانية الكثيرة وإمكانيات أراضيه الزراعية المهمة إذ ذاك حسب اعتراف الرحالة الفرنسيين أنفسهم. ف/ فينصانه/ يذكر أن عدد المواشي التى صادفها عند بئر «غسرم» الواقعة على بعد ٧٠ كلم جنوب نواكشوط يوم وصوله إلى تلك البئر فى ٢١ مارس ١٨٦٠م يقدر بـ: ١٥٠٠٠ رأس من الغنم و١٠٠٠ رأس من الابل وانه عد حوالي ١٢٠٠ رأس من الابل عند بئر «تورورت» جنوب انواكشوط [٣١]، كما قدر / فينصانه/ عدد النخيل بمذينة أطار الموريتانية بـ: ٦٠ ألف نخلة وقال ان إنتاج المدينة السنوي يبلغ ٢٠٠٠٠ طن من الزرع و٢٠٠ طن من الشعير و١٠٠ طن من القمح [٣٢].

ويتحدث / فينصانه/ كذلك عن قافلة تجارية جاءت إلى آدرار إبان مقامه فيه تضم ثلاثمائة جمل محملة بالبضائع قادمة

الكسل الذى يحلو لكثير من الرحالة الفرنسيين إلصاقه بمجتمع البيظان.

ونذكر أخيرا النهضة العلمية والادبية التى عرفتها بلاد شنقيط خلال القرن الـ١٨ والنصف الاول من القرن الـ١٩، تلك النهضة التى تعتبر تحديا لطبيعة البلاد القاسية ونفيا للكسل والتى تعتبر فريدة من نوعها فى العالم العربي الاسلامي الذى كان وقتها يعيش الركود والانحطاط.

وكما عمم / رنى كاييه/ الكسل على البيظان حاول هو وغيره من الرحالة الفرنسيين أن يلصقوا بهذا المجتمع صفة أخرى هي صفة البخل.

ـ البخل:

يقول / رنى كاييه/ مستطردا حادثة بسيطة ليبرهن من خلالها على بخل البيظان: «فى ٩ نوفمبر ١٨٢٤ زارتني مجموعة من البيظان وطلبت مني أن أشرح لها طريقة استخدام حبق الراعى ـ وهو نبات طبيعي ـ فرجاني أكبر أبناء الاسرة التى أسكن معها ألا ألبي طلبهم إلا مقابل الحصول على ثوب (. . .) وقد أوردت هذه الحادثة لأظهر مدى بخل هؤلاء السكان». [٣٤].

وهكذا فكل البيظان بخلاء إلى حد بعيد عند / رنى كاييه/ بمجرد اقتراح قدمه ولد أو مراهق. انه التعميم المطلق وغير الموضوعي والذى تنفيه معاملة هؤلاء البيظان لـ/ رنى كاييه/ نفسه وحسب اعترافه هو حيث يقول فى مكان آخر من رحلته: «. . . وأخيرا، وفى حدود الساعة الـ١١ توقف المخيم عن الرحيل، فلمحت خيمة الامير بنيت لتوها فاتجهت إليها كي آخذ قسطا من الراحة. فجاءت مجموعة من الزوايا وبدأت تنزع الاشواك من قدمي. وقد غضب الامير عندما شاهد حالة المعاناة التى أوجد فيها وأكد لي انه لو رآني أثناء الرحيل لأعطاني دابة أركبها. وأمر بأن يقدم إلي اللبن والماء للشراب» [٣٥].

ويظهر من خلال هذا الاستشهاد أن البيظان يمتازون بحسن الضيافة والانسانية. فهذا الاوربي الذى يشكُون أحيانا ـ ولذلك ما يبرره ـ فى مدى صدق إسلامه يشفقون عليه زوايا كانوا أم حسانا ويتألمون من معاناته ويسعون إلى تخفيفها [نزع الاشواك، تقديم الشراب]. ومع هذا فإن / رنى كاييه/ يواصل تحامله عليهم فيقول: «ان الزوايا بين كافة طبقات البيظان هم الذين يعطون القليل ويطلبون الكثير». [٣٦].

إنه حكم قاس هو الاخر. فالزوايا ـ كما رأينا ـ وكما اعترف بذلك بعض الرحالة الفرنسيين (بورل وفينصانه مثلا) يسيطرون على الانشطة الاقتصادية والفكرية. ونحن لا ننفى أن الزوايا يستخدمون سلطاتهم الروحية للحصول على بعض الهدايا والهبات من الفئات الاجتماعية الاخرى لكن ذلك قد يكون مقابل خدمات علمية أو دينية يقدمونها لتلك الفئات.

ويبلغ التحامل على البيظان ووصفهم بالبخل اوجه عند / ليوبولد بانيه/ إبان مقامه فى مدينة شنقيط خلال فبراير ١٨٥٠ حين يقول: «إن التصدق والضيافة، وهما من عادات العرب، لم يبق منهما فى هذه المنطقة غير إسميهما. فالكل منشغل بنفسه، والويل لمن لايتوفر على وسائل للعيش فإنه لم يعد يستحق أية شفقة ولا رحمة، وأكرر لا أحد هنا يعطى أي شيء لأحد آخر». [٣٧].

إن هذه الاحكام القاسية خاطئة ايضا وتتناقض مع الطبيعة التازريه للمجتمع الموريتاني، ذلك التازر المبني على مساعدة الفقراء والمحتاجين والعناية بهم. وهذه الظاهرة ماتزال موجودة لحد الساعة. أما الضيافة فكانت وماتزال من خصوصيات هذا المجتمع. و/ ليوبولد بانيه/ نفسه استقبلته مدينة شنقيط، التي يدعي أن الضيافة لم تعد موجودة فيها إلا بالاسم، استقبلته بأطباق التمر ومختلف أنواع المعاملة الحسنة التي يعترف هو نفسه بها. [٣٨]. كما أن الحفاوة التي استقبل بها / بورل/ تؤكد حسن الضيافة عند البيظان، فهذا الرحالة الفرنسي كان موضع الترحيب من طرف الامير البركني سيدى علي. وعومل طوال مقامه في منطقة البراكنة معاملة حسنة وودع وقت مغادرته المنطقة من طرف الامير وكبار معاونيه حسب اعترافه هو. [٣٩].

وإذا كان المجتمع البيظاني يستقبل ويستضيف النصارى بهذه الدرجة فمعنى ذلك أن اتهامه بالبخل فيه كثير من المغالاة. وبالطبع فإن هنالك رحالة فرنسيين ـ مثل كاميل دول ـ تم نهب أمتعتهم والاعتداء عليهم وحتى سجنهم وتعبيدهم من طرف بعض الاسر أو القبائل الصحراوية إلا أن ذلك يمكن أن يندرج في إطار بغض السكان المحليين المسلمين للنصارى المسيحيين لأن الرحالة الفرنسيين الذين يتظاهرون باعتناق الاسلام يعاملون ـ عموما ـ معاملة طيبة.

ـ الـــغـــــدر:

بالاضافة إلى محاولة إظهار البيظان بأنهم شعب كسول وبخيل حاول بعض الرحالة أيضا أن يلصق بهم بعض صفات الغدر كالتلصص والحسد والكذب والنفاق وعدم الوفاء.

وفي هذا النطاق كنا قد أشرنا إلى وصف / رني كاييه/ لحسان بأنهم «كسالى وكذابون ولصوص وجشعون وحساد وخرافيون ويجمعون، في الاخير، كل الصفات الرذيلة». [٤٠].

وقد علق / جانه كلود بلاشير/ على رحلة / رني كاييه/ قائلا: «ان الفكرة الاساسية التي ترددت طوال ذلك الاثر هي أن البيظاني لص في أحسن الحالات». [٤١].

أما / غاستون دونيه/ فيدلي بدلوه في هذا التحامل قائلا: «... ونجد لديهم [البيظان] النفاق بجميع التبعات والمساوىء التي تنجر عنه من رياء وكذب وبخل وغدر (...) فالاقوى يحطم الاضعف (...) والسرقة تمارس بشكل علني». [٤٢].

إن هذه الاوصاف تشتمل على كثير من المبالغة والتعميم. فإطلاق / رني كاييه/ كل تلك الاوصاف الرذيلة على حسان مسألة خاطئة وتعميم / غاستون دونيه/ للاوصاف السلبية التي نعت بها البيظان (كل البيظان) مسألة أكثر خطأ من سابقتها. وقد بلغ التشويه بـ/ غاستون دونيه/ حد اتهام شخصية دينية وسياسية مرموقة هي الشيخ سعد بوه بخداع رحالة فرنسي بغية سرقة متاعه والاستفادة من زاده. [٤٣]؟

ويتهم / بورل/ البيظان بعدم الوفاء قائلا: «لقد ألححت على الامير لأنني أعلم جيدا أن البيظان معطون تعهدات دون أن يعرفوا ما إذا كان بإمكانهم احترامها». [٤٤].

ويذهب / فينصانه/ في هذا السياق فيجزم بأن «البيظان لايحترمون وعدا أبدا. وإلى جانب ذ ك فهم يمتازون

والغدر يجب ألا تقود إلى إصدار حكم على شعب بأكمله انه يمارس تلك الاعمال وهو منها براء، فدينه وأخلاقه وعاداته تمنع وتحرم ممارسة هذا النوع من الاعمال.

ولايقف الامر عند هذا الحد بل ان / بورل/ يتهم حسان بممارسة الوحشية بشكل فظيع عندما يقول: «ان حسان الذين يقعون فى الاسر يقتلون شر تقتيل ويمثل بهم فتقطع أطرافهم ويرمون إلى الطيور والحيوانات المفترسة. وتشارك النساء بحماسة فى عمليات التقتيل والتمثيل البربرية تلك». [٤٦].

إننا نشك فى مدى صحة هذه الممارسة ونعتقد أن البيظان لم يبلغوا هذه الدرجة من القساوة والوحشية وان الامر ربما تعلق بحالة خاصة عممها / بورل/ بوصفها مصيرا مشؤوما ينتظر كل أسير، وذلك فى نطاق التعميم الذى ميز كثيرا من المعلومات الواردة فى كتب الرحلات الفرنسية هذه.

وإذا كان الرحالة الفرنسيون قد ارتكبوا أخطاء كثيرة فى المسائل الدينية والاجتماعية وهي أمور عيانية يكفى أن يفتح المرء عينيه كي يراها، فماذا سيكون حظ المعطيات التاريخية؟

ج ـ التشويه فى المجال التاريخي:

إن التحريفات والتشويهات التى أشرنا إليها سابقا فى المجالين الديني والاجتماعي يمكن اعتبارها تحريفات تاريخية تعطى صورة خاطئة عن حياة سكان هذه البلاد الدينية والاجتماعية وبالتالى عن تاريخها إلا أننا يمكن أن نضيف إليها مجموعة من الاخطاء اعتبرناها مرتبطة أكثر بالتاريخ.

وأهم هذا النوع من الاخطاء ذلك المتعلق بأصول المجتمع الموريتاني ولنترك الحديث للرحالة الفرنسيين بهذا الخصوص.

/ فبورل/ يقول: «بأن الزوايا ينحدرون من أصول بربرية وملامحهم المختلفة [؟] تدل على ذلك». [٤٧].

و/ فينصانه/ يؤكد «ان السكان المستقرين فى آدرار كلهم من الزوايا وهم بربر سابقون». [٤٨].

أما / غاستون دونيه/ فيجزم من جانبه «ان البيظان كلهم ينحدرون من أصل بربري» .. [٤٩].

إن طرح هذه المسألة من طرف الرحالة الفرنسيين فى النصف الثانى من القرن الـ١٩ قد يكون تمهيدا لاثارتها بشكل أكثر وضوحا فى مطلع القرن الـ٢٠ من طرف زعماء المدرسة الاستعمارية وخاصة / بول مارتى/ (Paul Marty) وكوبولانى (X. Coppolani) وبالتالى يمكن إدراجه فى نطاق السياسة الاستعمارية العتيقة «فرق تسد» لأن فرنسا كما نعرف بدأت، ومنذ منتصف القرن الـ١٩، تفكر جديا فى تغيير شروط تعاملها مع السكان المحليين تمهيدا لاستعمار البلاد الموريتانية. ولانتسى أن إثنين من الرحالة السابقين (فينصانه وبورل) كانا قد كلفا برحلتيهما من قبل الجنرال / فيدرب/ (Faidherbe) الوالى الفرنسي فى السنغال (١٨٥٤ ـ ١٨٦١)، ذلك الوالي الذى كان قد خدم السياسة الاستعمارية الفرنسية فى الجزائر حيث جربت فرنسا أطروحة منظري سياستها الاستعمارية المحاولة للفصل بين العرب والبربر متذرعة بمعادلتها الشهيرة العرب/ البربر ومحاولة فى هذا المجال كسب البربر إلى جانب الحضارة الفرنسية فى إطار صراعها مع الحضارة العربية الاسلامية.

التى حلل د. محمد عابد الجابرى أبعادها ونتائجها تحليلا عميقا وجادا فى بحثه المعنون: «يقظة الوعي العروبي فى المغرب مساهمة فى نقد السوسيولوجيا الاستعمارية» [٥٠].

وهكذا فإن محاولة إثارة التضاد العرقي بين البر بر والعرب يمكن إدراجها فى نطاق الاهداف الاستعمارية الفرنسية فى المنطقة بشكل علم. وفى هذا السياق يمكننا أن ندرج الاحكام السابقة المتعلقة بجعل البيظان كلهم منحدرين من أصول بربرية. إن مثل تلك الاحكام خاطئة طبعا، فهنالك فئات اجتماعية لاشك فى انتسابها إلى أصول عربية كالقبائل الحسانية المعقلية التى يذكر ابن عذارى انها اجتازت الساقية الحمراء فى سنة ٦٦٤/ ١٢٦٥ - ١٢٦٦ فى طريقها إلى الاراضى الموريتانية الحالية (٥١) التى وصلوا إلى شمالها فى أواخر القرن الـ١٣ م وإلى الجنوب الغربي منها فى نهاية القرن الـ١٤ م. [٥٢]. هذا بالاضافة إلى أن البلاد كانت قد استقبلت، ومنذ القرن الـ٢ الهجري، بعض العرب الحضريين من بين ما استقبلت من الفاتحين الذين كانوا أساسا حضريين.

وبغض النظر عما أثير من جدل حول أصول البر بر أنفسهم فإن القبائل البر برية، التى كانت موجودة فى البلاد الموريتانية قبل الفتح الاسلامي، قد اعتنقت هذا الدين مذهبا وتكلمت العربية لغة فتعربت على مر الزمن - هذا إن لم تكن عربية أصلا - ليصبح هذا المجتمع مجتمعا عربيا إسلاميا بغض النظر عن أصوله وانتماءاته العرقية السابقة.

وهاهو/ بول مارتى/ أحد منظري السياسة الاستعمارية يأسف على تعرب المجتمع الموريتاني قائلا «ان غياب البر بر شيىء يؤسف عليه ذلك أنهم لو أرادوا الصمود أمام الغزاة العرب فإن أعدادهم وثرواتهم تخولهم بسهولة قهر مجموعة النهابين هذه وطردها بعيدا أو استيعابها.

إن الحضارة البر برية العملية والتقدمية أفضل من العادات العربية السلبية والعدوانية المتأتية من بداوة مستحكمة غير صالحة لأي تقدم جدي». [٥٣].

ويدخل فى نطاق الاخطاء التاريخية قول/ غاستون دونيه/ «إن مختلف سكان آدرار قد أظهروا دائما الكثير من الصداقة تجاه الاوربيين». [٥٤].

إن هذا الحكم ليس له ما يبر ره هو الاخر، فنحن نعلم علم اليقين أن سكان الصحراء بمن فيهم سكان آدرار محافظون بطبيعتهم وخاصة إذا تعلق الامر بالاوربيين الذين يختلفون عنهم فى الجنس واللغة والدين. ولهذا فإنهم لم يظهروا دائما الصداقة والود تجاه الاوربيين، بل ان العكس ربما يكون هو الصحيح، فكم من رحالة أوربي تعرض للمضايقة والتهديد من طرف الموريتانيين فى آدرار القلقين على دينهم وأرضهم من خطر النصارى. ويؤكد/ ليوبولد بانيه/ خوف سكان آدرار على أرضهم من النصارى فيقول: «إن أي محاولة لتمركز فعلي فى هذه المنطقة من الصحراء [آدرار] لن تكلل بالنجاح وذلك نظرا لصعوبة الوصول إليها [الوعورة] ولصعوبة التغلب على آراء السكان المحليين [البيظان] المقتنعين على الدوام أننا جئنا لننزع منهم بلادهم، لكن ليس هناك ما يمنع زنوجا من السنغال من التمركز والاقامة فى مدينة شنقيط أو وادان، فمعتقداتهم الدينية ستوفر لهم ضمان الامن والاحترام تماما، كما توفرها للسكان العرب أنفسهم». [٥٥].

والرحالة الفرنسي/ فينصانه/ يقول ان رجال الدين فى آدرار طلبوا من الامير ولد عيده قتله هو وأفراد البعثة المرافقين له وانهم حاولوا تسميمه عندما رفض الامر مطلبهم. [٥٦].

ويقول / فينصانه/ انه عندما سأل الامير ولد عيده عما إذا كان سيرسل زوايا إلى سين لويس «كقائم بالاعمال» لدى الوالى الفرنسي رد عليه الامير بأنه يرغب فى ذلك ولكن ليس عنده الآن جمل يركبه ذلك الرجل. [٥٧]، رغم أن / فينصانه/ نفسه قد رحل مع مخيم الامير وقال انه يضم ٣٠٠ جمل. [٥٨]. وهذا ما جعل ذلك الرحالة الفرنسي يستنتج ان الامير يرفض إرسال مثل ذلك «السفير» إلى سين لويس.

ويعترف / فينصانه/ بأن أمير آدرار قد احتجزه لمدة ٢٧ يوما بتهمة التجسس مما عرقل مشروعه بزيارة مدينة تيشيت والعودة إلى سين لويس عن طريق تكانت وبكل وبودور. [٥٩].

انه كما نرى رفض الاوروبيين والحذر منهم وليس تقبلهم و«إظهار الكثير من الصداقة تجاههم دائما. . .» كما يزعم / غاستون دونيه/ .

وهذا الرفض الموريتاني للاوربيين هو نوع من الوعي بالذات سيتعمق عندما تبدأ عملية الاحتلال المباشر للبلاد، ويأخذ شكل مقاومة متعددة الاوجه للمستعمر الغازى سيلعب فيها سكان آدرار دورا مهما.

ويندرج فى هذا النوع من الاخطاء التاريخية أيضا ماذهب إليه / بورل/ من أن بركنيٌ وتروز جدّي قبائل البراكنة والترارزة كانا ضابطين فى جيش القائد المرابطي ببكر بن عمر حيث يقول / بورل/ فى هذا المجال: «إن البربر الصنهاجيين [؟] قد استولوا على مجموع البلاد الواقعة بين المغرب الاقصى ونهر السنغال وطردوا التكرور من الضفة اليمني بل وأبعدوهم إلى الجانب الاخر وقد حدث ذلك فى تاريخ غير محدد بالضبط غير أن الزوايا يقولون ان ببكر بن عمر قد تزعم هذه العملية صحبة ضابطيه بركنُى جد البراكنة وتروز جد الترارزة». [٦٠]

إن / بورل/ يشير هنا إلى دولة المرابطين التى ولدت بالاراضى الموريتانية فى أوائل القرن الـ١١م واستولت بسرعة على كل الصحراء الغربية وأطاحت سنة ١٠٧٦ بمملكة غانا الوثنية التي كانت تعرقل انتشار الاسلام جنوبا وأقامت امبراطورية مترامية الاطراف امتدت لتشمل المغرب الاقصى والاوسط وأجزاء كبيرة من شبه الجزيرة الايبيرية.

والخطأ الذى ارتكبه / بورل/ هو اعتبار بركني وتروز ضابطين فى جيش الزعيم المرابطي ببكر بن عمر وهوّ المتوفى سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٨٧م.

ونحن لانعرف تاريخ وفاة بركنى وتروز إلا أن هدى بن أحمد بن دمان بن عزوز بن مسعودُ بن موسى بن تروز توفي فى حدود ١٦٨٦م، وبكار بن علي بن عبد الله بن كروم بن عبد الجبار بن ملوك بن بركنى توفي سنة ١٦٨١م وكلاهما تفصله خمسة أجيال عن جده. وإذا قدرنا الجيل بثلث قرن يكون كل من بركنى وتروز قد توفي فى حدود نهاية القرن الـ١٥م أي أن حوالي ٤ قرون من الزمن تفصلهما عن القائد المرابطي ببكر بن عمر.

وهنالك خطأ آخر ارتكبه / غاستون دونيه/ عندما قال: «توجد فى الترارزة أسرتان [قبيلتان] مهمتان نبيلتان لهما تأثير كبير هما أولاد دمان وأولاد عايد». [٦١].

ويتمثل هذا الخطأ فى جعل أولاد عايد قبيلة كبيرة تأثيرها مهم فى الترارزة خلال النصف الثانى من القرن الـ١٩. والمعروف أن أولاد عايد من القبائل العربية القديمة التى تمكن المغافرة من التغلب عليها وإخضاعها منذ أمد بعيد فتضاءلت أهميتها ووزنها الديمغرافي على مر الزمن بحكم خضوعها وإمحائها عن طريق الاختلاط مع المجموعات الاجتماعية الاخرى.

حيث الوزن السياسي والعسكري وهي التى توجد فيها الاسرة الاميرية فإغفالها من طرف ذلك الرحالة فيه نوع من التقصير.

هكذا إذن فإن كتب الرحلات الفرنسية فى القرن الـ١٩، وإن كانت تمثل مصدرا أساسيا من مصادر التاريخ الموريتاني نظرا لما تشتمل عليه من معلومات مهمة خاصة فى المجالات الاقتصادية والطبيعية، فإنها ساهمت، فى نفس الوقت، فى تحريف وتشويه بعض أوجه حياة هذا المجتمع سواء تعلق الامر بما «سكت» عنه أغلب الرحالة وهو المظاهر العالمة من الثقافة تأليفا وتدريسا، هذا الاهمال الذى لانجد له تفسيرا مقنعا غير محاولة تبسيط وتحجيم البعد الثقافي للمجتمع الموريتاني؛ سواء تعلق الامر إذن بهذا السكوت أو بأخطاء الرحالة فى المسائل التى استقطبت اهتماماتهم، تلك الاخطاء التى تتراءى للوهلة الاولى جزئية وبسيطة، ولكنها تبدو جدية حين ينظر إليها فى مجموعها بما تشكله من تحامل حينا ومن خلط فى المسائل أحيانا كانت محصلتهما تشويه فى التطبيقات الدينية والعادات الاجتماعية والماضي التاريخي لهذا البلد العربي الاسلامي. فمطالعة هذه الرحلات تطرح سؤالا مشروعا عما إذا كان أصحابها قد تخلصوا ـ وهم يحملون فى الغالب هما سياسيا وايديولوجيا استعماريا ـ من الروح الصليبية. أو لايكفى كل هذا لتبرير الحذر واليقظة فى التعامل مع هذه الرحلات كمصدر للتاريخ الموريتاني لاغنى عنه ولابد بالتالى من تصحيح أغلاطه لبناء تصور صحيح عن هذا المجتمع آنذاك؟.

وإذا كان طابع التبسيط والتحجيم حينا والتحامل الصريح أحيانا هو الذى ميز نظرة الرحالة الفرنسيين للمجتمع الموريتاني فى القرن الـ١٩ فماهي طبيعة هذه النظرة مع تغير الخريطة الجيوبوليتيكية للمنطقة خلال القرن الـ٢٠؟.

الهوامش:

١ ـ محمد المختار ولد السعد، «عوائق البحث فى التاريخ الموريتاني»، مجلة الوسيط، نشرة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، عدد ٢ (١٩٨٨) ص. ص: ٢٨-٤٣، ص ٣٣.

٢ ـ أحمد ابراهيم دياب، لمحات من التاريخ الافريقي الحديث، الرياض، الطبعة الاولى ١٩٨١، ص. ص ٢٩-٣٠.

3 – Jean-Claude Blachère, «L'image de la Mauritanie Saharienne dans la Littérature Française» **Notes Africaines**, N° 132, Oct. 1971 P.P. 102 - 107, P.103.

4 – Léopold Panet, «Relation d'un Voyage du Sénégal à Soueira (Magador)» **Revue Coloniale**, Novembre 1850, P.P. 379 - 445 et Décembre 1850, P.P. 473 - 554, P. 410.

5 – J - C. Blachère, **OP.CIT**, P. 103.

6 – Léopold Panet, **OP.CIT**, P. 410-411.

7 – J - C. Blachère, **OP.CIT**, P. 102.

8 – Camille Douls, «Cinq Mois chez les Maures nomades du Sahara Occidental», **le Tour du Monde**, 1er Semestre, 1888, P.P. 176 - 224, P. 184 et suivantes.

9 – René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, François Maspéro, Paris 1979, P. 138.

10 - Bourrel (Enseigne de Vaisseau), «Voyage dans le pays des Maures Brakna, Rive Droite du Sénégal, Juin - Octobre 1860», **Revue Maritime et Coloniale**, Tome Second, Septembre 1861, PP. 511-545 et Octobre 1861, P.P. 11-77

١١ ـ ابن إسحق خليل، المختصر، دار الفكر، بيروت ـ لبنان ١٩٨١.

12 – Bourrel, **OP.CIT**, P. 28.

13 - Idem, P. 523.

١٤ ـ حول هذه الحرب، أنظر البحث الجاد الذى أنجزه زميلنا محمد المختار ولد السعد، حرب شربيه أو أزمة القرن السابع عشر فى الجنوب الغربي الموريتاني، قيد النشر الان.

15 – René Caillié, **OP.CIT**, P. 142.

17 – Idem, P. 169.
18 – Idem, P. 170.
19 – Idem, P. 168.
20 – Gaston Donnet, **Une Mission au Sahara Occidental, du Sénégal au Tiris,** Augustin Challamel, Paris, 1896, P. 25.
٢١ ـ سورة النساء، الاية ٣
22 – René Caillié, **OP.CIT,** P. 141.
23 – Idem, P. 142.
24 – Gaston Donnet, **OP.CIT,** P. 36.
25 – Vincent (H), «Voyage d'exploration dans l'Adrar (Sahara Occidental), **Revue Algérienne et Coloniale,** 3ème série, N° 4, Octobre 1860, P.P. 445-494, P. 493 .
26 – Bourrel, **OP.CIT,** P. 522.
27 – R. Caillié, **OP.CIT,** P. 141.
28 – Léopold Pan et, **OP.CIT,** P. 411.
29 – Bourrel, **OP.CIT,** P. 537.
30 – Gaston Donnet, **OP.CIT,** P. 25.
31 – Vincent, **OP.CIT,** P. 450.
32 – Idem, P. 482.
33 – Idem, P. 475.
34 – René Caillié, **OP.CIT,** P. 125.
35 – Idem, P.P. 96-97.
36 – Idem, P.P. 142-143.
37 – Léopld Panet, **OP.CIT,** P.P. 413-414.
38 – Idem, P.P. 414-415.
39 – Bourrel, **OP.CIT,** P.P. 64-65 et 517-518.
40 – René Caillié, **OP.CIT,** P. 141.
41 – J.Claude Blachère, **OP.CIT,** P. 103.
42 – Gaston Donnet, **OP.CIT,** P. 26.
43 – Idem, P. 32.
44 – Bourrel, **OP.CIT,** P. 30.
45 – Vincent, **OP.CIT,** P. 492.
46 – Bourrel, **OP.CIT,** P. 24.
47 – Idem, P. 523.
48 – Vincent, **OP.CIT,** P. 488.
49 – Gaston Donnet, **OP.CIT,** P. 19.

٥٠ ـ أنظر محمد عابد الجابرى، المغرب المعاصر، الخصوصية والهوية . . الحداثة والتنمية، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط ٩، ١٩٨٨، ص: ٧٥ ـ ١١٠.
٥١ ـ ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب، القسم الثالث (تاريخ الموحدين)، دار كريماس للطباعة، تطوان، ١٩٦٠، ص: ٤٦٦.
٥٢ ـ محمد المختار ولد السعد، حرب شربيه، مرجع سبق ذكره، ص: ١٩.

53 – Paul Marty, **L'Emirat des Trarza,** Paris, E. Leroux, 1919, P. 24.
54 – Gaston Donnet, **OP.CIT,** P. 56.
55 – Léopold Panet, **OP.CIT,** P.
56 – Vincent, **OP.CIT,** P. 476.
57 – Idem, P. 478.
58 – Idem, P. 469.
59 – Idem, P. 494.
60 – Bourrel, **OP.CIT,** P.P. 518-519.

أولا : المصادر :

1 ـ المصادر-العربية :

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ ابن عذارى، المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب، القسم الثالث (تاريخ الموحدين)، دار كريبادس للطباعة، تطوان ١٩٦٠.

٣ ـ خليل (بن إسحاق)، المختصر، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨١.

2 ـ المصادر الفرنسية :

1 - Bourrel (Enseigne de Vaisseau)

«Voyage dans le Pays des Maures Brakna (Rive droite du Sénégal), Juin - Octobre 1860», **Revue Maritime et Coloniale,** Tome Second, Septembre 1861, PP. 511-545 et Octobre 1861, P.P. 11-77.

2 - Caillié (René)

Voyage à Tombouctou, François Maspéro, Paris, 1979.

3 - Donnet (Gaston)

Une Mission au Sahara Occidental,du Sénégal au Tiris, Augustin Challamel, Paris, 1896.

4 - Douls (Camille)

«Cinq mois chez les Maures nomades du Sahara Occidental, **Le Tour du Monde,** 1er Semestre 1888, P.P. 176-224.

5 - Mage (Enseigne de Vaisseau)

«Voyage au Tagant», **Revue Algérienne et Coloniale,** juillet 1860, P.P. 1-28.

6 - Mollien (Gaspard-Théodore)

Voyage aux sources du Sénégal et de la Gambie,Imprimerie, Madame Courcier, Paris, 1820, 2 Volumes.

7 - Panet (Léopold).

«Relation d'un voyage du Sénégal à Soueira (Mogador)», **Revue Coloniale,** Novembre 1850, P.P. 379-445 et Décembre 1850, P.P. 473-554.

8 - Vincent (Capitaine d'Etat Major)

«Voyage d'exploration dans l'Adrar (Sahara Occidental), **Revue Algérienne et Coloniale,** 3ème Série, n°4, Octobre 1860, PP. 445-494.

ثانيا : المراجع :

1 ـ المراجع العربية :

١ ـ الجابرى (محمد عابد) المغرب المعاصر، الخصوصية والهوية . . الحداثة والتنمية، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط ١ ١٩٨٨.

٢ ـ دياب (أحمد إبراهيم)، لمحات من التاريخ الافريقي الحديث، الرياض ط ١ ١٩٨١.

٣ ـ ولد السعد (محمد المختار)، ـ حرب شربيه أو أزمة القرن ١٧ فى الجنوب الغربي الموريتاني، قيد النشر.

ـ «عوائق البحث فى التاريخ الموريتاني»، مجلة الوسيط، نشرة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، عدد ٢ (١٩٨٨) من ٢٨ـ٤٣.

2 ـ المراجع الفرنسية :

1 - Blachère (Jean-Claude).

«L'Image de la Mauritanie Saharienne dans la Littérature Française», **Notes Africaines,** n° 132, Oct. 1971, P.P. 102-107.

2 - Marty (Paul .

L'Emirat des Trarza, Paris, Ernest Leroux 1919.